

القسم الرابع

البداية والنهاية



الفصل الخامس عشر

**رجال الكلمة**



## 104

لا تصعد الحركات الجماهيرية، عادة، إلا بعد أن تتم تعرية النظام القائم. وهذه التعرية لا تجيء عفويًا نتيجة أخطاء النظام وسوء استغلال السلطة، بل عن طريق عمل متعمد يقوم به رجال الكلمة الذين يحملون ظلمات ضد النظام. عندما يغيب القادرون على صياغة الكلمات، أو عندما يوجدون ولا يحملون أي ظلام، فإن النظام القائم، مهما كان فاسدًا وضعيف الإرادة، قد يستمر في الوجود، حتى ينهار ويسقط من تلقاء نفسه. ومن ناحية أخرى، فإن النظام القائم سيحرم نفسه من كثير من القدرة والحيوية إذا فشل في اجتذاب هذه الأقلية المبدعة.

إن نشوء حركة جماهيرية وبقاءها، كما سبق أن رأينا، أمر يعتمد على القوة. والحركة الجماهيرية في عنفوانها ظاهرة مخيفة تتركز قيادتها في أفراد متطرفين يستخدمون الكلمة لإضفاء طابع العفوية على الاستسلام الذي حصلوا عليه بالقوة، إلا أن هؤلاء المتطرفين لا يستطيعون أن يتحركوا ويأخذوا زمام الموقف، إلا بعد تعرية النظام القائم وتجريده من شرعيته لدى الجماهير. ولا يمكن لهذا العمل التمهيدي، الذي يستهدف تقويض المؤسسات القائمة وتعويد الجماهير على فكرة التغيير وإيجاد الجو الملائم لقبول العقيدة

الجديدة، أن يتم إلا عن طريق رجال هم، أولاً وقبل كل شيء، رجال فكر وأدب، يعترف لهم الجميع بهذه الصفة. طالما ظلّ النظام القائم يؤدي واجباته على نحو منتظم، فستظل الجماهير متعايشة معه. قد تفكر الجماهير في الإصلاح، ولكنها لا تريد التغيير الشامل. يبدو المتطرف في نظر هذه الجماهير خطراً أو خائناً أو غير واقعي أو مجنوناً، ولن تكون على استعداد للاستماع إليه، اعترف لينين بنفسه أن التربة عندما لا تكون مهياًة للشيوعية (فإن الشيوعيين سيجدون من الصعب عليهم التواصل مع الجماهير، أو حتى إقناعها بالاستماع إليهم)<sup>(1)</sup>. وفوق ذلك، فإن السلطات، حتى عندما تكون ضعيفة ومتسامحة، تنزع إلى الردّ بعنف على تحركات المتطرف، وقد تستمد من نشاطاته حيوية جديدة.

إلا أن الأمر يختلف بالنسبة لرجل الكلمة العادي، غير المتطرف. تستمع الجماهير إليه؛ لأنها تدرك أن كلماته، وإن حملت طابع الاستعجال، لا تستطيع تحقيق نتائج فورية. كما أن السلطات تنزع إلى تجاهله نهائياً أو استخدام وسائل ناعمة لإسكات صوته. وهكذا، ودون أن يشعر أحد، يمكن لرجل الكلمة أن يهدّد المؤسسات القائمة، وأن يدين المتربعين على

(1) G. E. G Catlin, The story of the Political Philosophers, (New York: mc Graw- Hill Boot Company, 1939), p. 48.

مقاعد السلطة، وأن يُضعف الانتماءات والولاءات القائمة، وأن يهيئ التربة لحركة جماهيرية.

إن التفرقة بين رجال الكلمة والمتطرفين ورجال العمل، التي سترد فيما يلي، لا يجب أن تؤخذ على علّتها. هناك رجال، مثل غاندي وتروتسكي، بدؤوا حياتهم رجال كلمة لا تأثير لهم، إلا أنهم في وقت لاحق، أبدوا قدرة استثنائية على القيادة والإدارة. إن متطرفاً مثل لينين كان سيد الكلمة الخطابية، بالإضافة إلى كونه رجلاً من رجال العمل. ما تستهدف التفرقة إيضاحه هو أن تهيئة التربة لحركة جماهيرية تؤدّي على أفضل وجه على يد رجال موهبتهم الأساسية استخدام الكلمة المسموعة أو المقروءة، وأن ولادة الحركة الفعلية تتطلب مزاجاً ومواهب لا تتوافر إلا عند المتطرف، وأن استقرار الحركة وشكلها النهائي هو أساساً مهمة الرجال العمليين.

عندما تظهر على مسرح الأحداث أقلية تجيد صياغة الكلمة، لم تكن موجودة من قبل، فإن ظهورها يمكن أن يشكل حركة ثورية محتملة. قامت القوى الغربية على نحو غير مباشر، وربما غير مقصود، بتهيئة الجو لحركات جماهيرية في آسيا، لا بسبب ما أثارته من نقمة ولكن بخلق أقليات مثقفة عن طريق التعليم الذي كان، في معظمه، أهلياً وخيرياً. تلقى عدد كبير من القادة الثوريين، في الهند والصين وأندونيسيا، تعليمهم في

مؤسسات غربية محافظة. وكانت الجامعة الأمريكية في بيروت، التي يديرها ويدعمها مسيحيون أمريكيون أتقياء محافظون، مدرسة للثورة في العالم العربي الأمي. ولا يوجد أدنى شك أن أساتذة المدارس التبشيرية المسيحية الأتقياء كانوا، من غير قصد، ضمن أولئك الذين أعدوا المسرح للثورة الصينية.

## 105

ينتمي رجال الكلمة إلى عدة فئات مختلفة. قد يكونون قساوسة، أو كتّابًا، أو فنّانين، أو أساتذة، أو طلابًا، أو مثقفين عمومًا وإجمالاً. في بلد مثل الصين، حيث تصعب الكتابة والقراءة، يمكن أن يعدّ كل من تحرر من الأمية رجلًا من رجال الكلمة. وكان الوضع نفسه موجودًا في مصر الفرعونية، حيث كان فنّ الكتابة بالرسوم حكرًا على أقلية صغيرة.

ومهما كان نوعهم، فإن هناك رغبة مشتركة تجمع كل رجال الكلمة، وتحدد موقفهم من النظام القائم: الحرص على الاعتراف بهم، والحرص على حصولهم على وضع يميزهم عن العامة. قال نابليون: (الغرور والطموح صنعا الثورة؛ أما الحرية فكانت التبرير). يبدو أن هناك شعورًا بالنقص لا يمكن تجاوزه في داخل كل مثقف، سواء كان مبدعًا أو غير مبدع. ويبدو أنه حتى أكثر المثقفين إنتاجًا وموهبة يعيش في حالة دائمة من الشك في نفسه، ويحتاج إلى إثبات ذاته من

جديد كل يوم. ينطبق على المثقفين ما قاله رجل من رجال الكلمة عن زميل له في المهنة: (لديه من الاعتداد أكثر مما لديه من الطموح، وهو يؤثر التقدير على الطاعة، ويفضّل خيال القوة الوهمي على القوة الحقيقية، استشره أولاً، ثم افعل ما تريد. سوف يلاحظ ما تظهره له من احترام أكثر مما يلاحظ ما تقوم به من تصرفات<sup>(1)</sup>).

هناك لحظة ما، في حياة كل رجل من رجال الكلمة تقريباً، يمكن فيها اجتذابه إلى صف النظام عن طريق مبادرة سلام وتقدير يقوم بها الحاكمون. وهناك، في مرحلة من المراحل، استعداد لدى معظم رجال الكلمة للانضمام إلى النظام القائم وخدمته. هناك من يرى أن البابا لومنج لوثر رتبة الكاردينال لخفض ذلك من حماسه لقيادة الثورة ضد الكنيسة. وربما كان بالإمكان اجتذاب كارل ماركس<sup>(2)</sup> في شبابه إلى العمل في حكومة بروسيا؛ بعرض لقب رنان ووظيفة مهمة، كما كان من الممكن اجتذاب لاسال<sup>(3)</sup> بوظيفة مرموقة في البلاد. إلا

---

(1) Quoted by Alexis De Tocqueville, Recollections (New York: Macmillan Company, 1896, p. 33.

(2) كارل ماركس (-1818 1883م) مفكر ألماني وضع النظرية الشيوعية عبر كتابه الشهير «رأس المال» والمناخستو الشيوعي (الترجم).

(3) كان فرديناند لاسال (-1825 1864م) من تلامذة ماركس، وأبرز قادة الحركة الشيوعية في ألمانيا (الترجم).

أنه بمجرد أن يطور رجل الكلمة فلسفة، ويعلن عن برنامجه، فسوف يكون مخلصًا لهما، ولن تجدي معه الوعود أو الوعيد.

إن الظلامات التي تحرك رجل الكلمة، بصرف النظر عما يدعيه من أنه يمثل المسحوقين والمظلومين، هي، باستثناءات لا تكاد تذكر، ظلمات فردية وشخصية. قد يتحدث عن الرحمة، إلا أن مشاعره الفعلية نابعة من كراهيته للنظام القائم<sup>(1)</sup>.

إن الذين يشعرون بحب نحو الإنسانية، بحيث يتمردون على الظلم والمعاناة، بالرغم من عدم تأثرهم شخصيًا بهما، أفراد نادرون<sup>(2)</sup> يعرض ثوروا المسألة بوضوح تام: (إنني أعتقد أن الذي يزعج الصلح، مهما كانت درجة تقواه وصلاحه، هو ألمه الشخصي وليس الشفقة على الآخرين، ولو حُلَّت مشكلته الشخصية لتخلى عن الآخرين دون كلمة اعتذار<sup>(3)</sup>).

عندما يعترف النظام القائم بوضع مميز لرجل الكلمة، فإنه سينخرط في صفوفه وسيجد مبررات نبيلة لوقوفه مع القوي ضد الضعيف. كان لوثر، في بداية تمرده على الكنيسة، يتحدث

(1) Multatule, Max Harelaar, (New York: Alfred A. Knopf, Inc 1927).  
Introduction by D. H. Lawrence.

(2) Bertrand Russell, proposed Roads to Freedom (New York: Blue Ribbon Books, 1931), Introduction, p. v 111.

(3) Henry Thoreau, Walden, Modern Library Edition (New York: Random House, 1937), p. 70.

بحرارة (عن الفقراء البسطاء المساكين)<sup>(1)</sup>. ولكنه، في وقت لاحق، عندما احتضنه الأمراء الألمان أعلن (أن الله يفضل أن تكون هناك حكومة، مهما كانت شريرة، على الفوضى التي تتيح للرعاع الإخلال بالأمن، مهما كانت ظلاماتهم مشروعة)<sup>(2)</sup> وبييرك<sup>(\*)</sup>، عندما تبناه اللوردات والنبلاء تحدث عن (الفوضى الخنازيرية)، ونصح الفقراء (بالصبر والجِدِّ والبعد عن المسكرات والتوفير والتدين)<sup>(3)</sup>. لم يشعر رجال الكلمة الذين جندتهم النازية في ألمانيا والبلشفية في روسيا بأي دافع للوقوف مع المظلومين والمقموعين ضد القادة الطغاة وبوليسهم السري.

## 106

لا يمكن أن يطول بقاء عهد ما، برغم عدم كفاءته، إلا إذا كان هناك غياب كامل للطبقة المثقفة، أو كان هناك تحالف وثيق بين الحاكمين ورجال الكلمة. وعندما يكون جميع

(1) Quoted by Frantz Funck- Brentato, Luther, (London: Jonathan Cape, Ltd, 1939) p. 65.

(2) Quoted by Jerome Frank, Fate and Freedom. (New York: Simon and Schuster, inc 1945), p. 281.

(\*) كان أديموند بييرك (-1729 1797م) رجل دولة ومنظرًا سياسيًا بريطانيًا منحازًا إلى التفكير المحافظ (المترجم).

(3) Ibid, p. 133.

المتقنين من الكهنوت، تصبح للكنيسة سلطة مطلقة. وعندما يكون جميع المثقفين موظفين، أو عندما يتمتعون بوضع متميز عن وضع الآخرين، فإن النظام القائم سوف يكون بمنأى عن الاضطرابات والمعارضة.

انحدرت الكنيسة الكاثوليكية إلى أدنى مستوياتها في القرن العاشر أمام البابا جون الثاني عشر. كانت الكنيسة في تلك المدة أسوأ بكثير منها في مدة الإصلاح البروتستانتي. إلا أنه، في القرن العاشر، كان جميع المثقفين من رجال الكهنوت. أما في القرن الخامس عشر نتيجة ظهور المطابع والورق، فلم يعد التعليم حكراً على الكنيسة. كان المثقفون، من غير الكهنوت، طليعة الإصلاح. أما مثقفو الكنيسة المرتبطون بها، أو بالبابا في روما والتمتعون بالمزايا (فقد أبدوا الكثير من التسامح نحو الأوضاع الكنسية وتجاهلوا الانحرافات الدينية ولم يكونوا، إجمالاً، يهتمون) بالرعاع الذين ظلوا في ظلام الجهل الذي يليق بوضعهم<sup>(1)</sup>.

كان استقرار الوضع في الصين الأمبراطورية، شأنها شأن مصر الفرعونية، نتيجة تحالف وثيق بين الطبقة الحاكمة والمثقفين. إنه لمن المثير للانتباه أن تمرد تايبينج<sup>(\*)</sup>، الذي يمثل

(1) «Reformation» Encyclopaedia Britannica.

(\*) كان تمرد تايبينج (-1850 1864م) إعصاراً دينياً سياسياً هز الصين من أقصاها إلى أقصاها وتجاوز عدد ضحاياها عشرين مليون نسخة (المترجم).

الحركة الجماهيرية الفاعلة الوحيدة في المدة التي شهدت حيوية الأمبراطورية، كان بقيادة مثقف فشل، المرة تلو المرة، في اجتياز الامتحان الحكومي الذي يؤهل لشغل المراتب العليا في الدولة<sup>(1)</sup>.

إن بقاء الأمبراطورية الرومانية الطويل كان، إلى حدّ ما، نتيجة التحالف التام بين الحكام الرومان ورجال الكلمة اليونانيين. أحسّ اليونانيون المهزومون أنهم منحوا الفاتحين القوانين والحضارة وأنه لمن المذهل حقاً أن نقرأ أن نيرون، الطاغية المستبد، والذي كان معجباً بالحضارة اليونانية إلى حد الوله، استقبل بحماسة هيستيرية من قبل اليونانيين خلال زيارة اليونان 67 ق. م. اعتبره اليونانيون متقماً مثلهم وفناناً مثلهم. (جمع اليونانيون، في محاولة للتقرب منه، جميع الألعاب في سنة واحدة، وأرسلت كل المدن اليونانية له جوائز مسابقاتها. وحيثما ذهب كانت هناك جموع في انتظاره تناشده أن يعزف ويغني<sup>(2)</sup>). وقام نيرون، بدوره، بإغراق اليونانيين في الهدايا والمنح.

(1) Rene Fullop Miller, Leaders, Dreamers and Rebels (New York: The Viking & Press, 1935), p. 85.

(2) Ernest Renan, Anti christ, (Boston: Roberts Brothers, 1897), p. 245.

في كتابه «دراسة للتاريخ»، يستشهد البروفسور ا.ج. توينبي بالأشعار التي كتبها الشاعر كلوديان، المقيم في الإسكندرية، والتي يتغنى فيها بروما بعد خمسة قرون تقريباً من دخول قيصر إلى مصر، ويضيف توينبي بأسى: «من السهل أن نثبت أن الاستعمار البريطاني في الهند كان، من نواح عدة، أكثر تسامحاً ونفعاً للناس من الأمبراطورية الرومانية، إلا أنه يصعب أن نعثر على مديح له يشبه مديح كلوديان في أي مدينة من مدن الهند<sup>(1)</sup>. ولعله ليس من الإغراق في الخيال أن نقول: لو أن البريطانيين في الهند، بدلاً من التحالف مع المهرجات والقيادات التقليدية حاولوا اجتذاب المثقفين الهنود وعاملوهم معاملة الند للند وشجعوهم وأشركوهم في السلطة لبقوا في الهند مدة أطول بكثير. إلا أن ما حدث هو أن حكام الهند البريطانيين كانوا من عقلية لا تستطيع التعامل مع المثقفين في أي بلد، وخاصة في الهند. كانوا رجالاً عمليين بعيدين عن النظريات يؤمنون بالتفوق الطبيعي للبريطانيين. في معظم الأحوال، لم يظهر هؤلاء الحكام سوى الاحتقار للمثقف الهندي، سواء بصفته رجل كلمة أو بصفته هندياً. حاول البريطانيون في الهند حصر كل الأنشطة في أيديهم، ولم يبذلوا مجهوداً

(1) Arnold. T. Toynbee, A study of History Abridgment by D. C. Somervell (Toronto: Oxford University Press, 1947) P. 294.

يذكر لتشجيع الهنود على أن يصبحوا مهندسين، أو خبراء زراعيين، أو تقنيين مهرة. لم ينتج النظام التعليمي الذي أقاموه غير رجال كلمة نظريين، والمفارقة هي أن هذا النظام بدلاً من أن يحمي الحكم البريطاني ساعد في نهايته.

كما أن فشل بريطانيا في فلسطين يرجع، جزئياً، إلى انعدام التفاهم بين الموظفين الاستعماريين البريطانيين وبين رجال الكلمة. كانت أغلبية اليهود في فلسطين، برغم انهماكهم في العمل، من رجال الكلمة الذين يشعرون بحساسية مفرطة تجاه الانتقاد. كانوا يعانون من الاحتقار الذي لمسوه لدى البريطانيين الذين اعتبروا اليهود مشاغبين لا يعترفون بالجميل الذي أسداه لهم الحكم البريطاني بحمايتهم من العرب. كما أن اليهود شعروا بالنقمة من الوصاية التي مارسها موظفون بريطانيون يفتقرون إلى الخبرة والذكاء. لو كان هؤلاء الموظفون يتمتعون بالذكاء والحكمة لبقيت فلسطين جزءاً من الأمبراطورية البريطانية<sup>(\*)</sup>.

في كل من الأنظمة النازية والبلشفية هناك شعور عميق بأهمية العلاقة المفصلية بين الدولة وبين رجال الكلمة. في

---

(\*) جانب المؤلف، هنا، الصواب، فقد كان هدف الصهاينة، منذ البداية، إنشاء دولة يهودية مستقلة. ولم يكونوا ليجدوا من هذا الهدف مهما كان مستوى ذكاء الحكام البريطانيين (المترجم).

روسيا يتمتع الكتاب والفنانون والمثقفون بالمزايا التي تحصل عليها النخبة الحاكمة، بل إنه يمكن اعتبارهم جميعاً موظفين من درجة عالية لدى الدولة. وبرغم أنهم مجبرون على اتباع الخطر الرسمي للحزب، إلا أن الانضباط المفروض عليهم هو الانضباط نفسه المفروض على النخبة الحاكمة، وفي حالة هتار كان هناك نوع من الواقعية الشيطانية يستهدف التعليم حكراً على النخبة التي ستحكم الأمبراطورية العالمية التي كان يعلم بها، بينما تبقى الجماهير في أمية شبه كاملة.

## 107

يُعدّ الكتاب الفرنسيون في القرن الثامن عشر المثال التقليدي لمثقفين فتحوا الطريق أمام حركة جماهيرية. إلا أن نمطاً مماثلاً يمكن أن يشاهد في الفترات التي تسبق قيام معظم الحركات الجماهيرية هُيئت التربة للإصلاح البروتستانتية على أيدي المثقفين الذين سخروا من كهنوت روما ونددوا به، وكان انتشار المسيحية السريع في الأمبراطورية الرومانية يعود، جزئياً، إلى أن المذاهب الوثنية التي حلت المسيحية محلها أصبحت مرفوضة تماماً. هوجمت هذه المذاهب قبل ظهور المسيحية وبعدها، من قبل فلاسفة اليونان الذين سخروا منها في المدارس والشوارع. ولم تستطع المسيحية تحقيق أي تقدم في مواجهة اليهودية؛ لأن هذه الديانة الأخيرة حظيت

بولاء متحمسة من قبل رجال الكلمة اليهود. كان الحاخامات وتلامذتهم يتمتعون بموقع ممتاز في حياة اليهود اليومية، حيث تضافرت المدرسة والكتاب للوقوف مع المعبد ومع التراب. ولو تصورنا نظاماً يتمتع فيه رجال الكلمة بسلطة مطلقة، فسيكون نظاماً مُحصَّناً ضد أي معارضة من الداخل وضد أي حركة جماهيرية في الخارج.

كانت الريادة في قيام الحركات الجماهيرية المعاصرة، سواءً كانت اشتراكية أو قومية، دوماً للشعراء والمؤرخين والباحثين والفلاسفة، ومن إليهم. والعلاقة بين المثقفين المنظرين وبين الحركات الثورية لا تحتاج إلى تأكيد. إلا أنه من الضروري أن نلاحظ أن الحركات الوطنية كلها من الثورة الفرنسية إلى آخر تمرد في أندونيسيا لم يوجد لها رجال عمليون، بل مثقفون هاجموا الأوضاع السائدة. إن الضباط الكبار ومالكي الأراضي ورجال الأعمال الذين يعدّون رموز الحركة الوطنية لا يصعدون على المسرح، عادة، إلا متأخرين بعد ظهور الحركة وبدأ نشاطها. إن الجهد الأكبر المبذول في المرحلة الأولى من أي حركة وطنية تنصب على إقناع الرموز الوطنية المشار إليها واجتذابها إلى صفوف الحركة. قال المؤرخ التشيكي بالاكي: (لو أن السقف انهار ذات ليلة عليه، وعلى عدد من رفاقه خلال تناولهم العشاء، لما كانت هناك

حركة تشيكية وطنية<sup>(1)</sup>. كان هناك، دومًا، عدد محدود من رجال الفكر غير العمليين وراء جميع الحركات الوطنية.

صاغ المثقفون الألمان فكرة القومية الألمانية كما صاغ المثقفون اليهود فكرة الصهيونية. إن شوق رجل الكلمة إلى موقع متميز هو الذي يجعله مفرط الحساسية تجاه أي إهانة توجه إلى الطبقة أو الجماعة التي ينتمي إليها، سواء كانت عرقية أو لغوية أو دينية، ومهما كان الانتماء سطحيًا. كانت الإهانة التي وجهها نابليون إلى الألمان، وإلى البروسيين تحديدًا هي التي دفعت عددًا من المثقفين الألمان إلى دعوة الجماهير إلى الاتحاد في دولة قوية تستطيع السيطرة على أوروبا. وكان هرتزل<sup>(\*)</sup> ورفاقه مدفوعين إلى الصهيونية: نتيجة الإهانات التي تلقاها ملايين اليهود في روسيا، ونتيجة المآسي التي تعرض لها اليهود في أوروبا مع نهاية القرن التاسع عشر. وإلى حد ما، وجدت الحركة الوطنية التي أخرجت بريطانيا من الهند بدايتها في الإهانات التي لاحقت غاندي في جنوب أفريقيا.

(1) Carlton J. h Hayes, The Historical Evolution of Modern Nationalism (New York: R. R. Smith, 1931), p. 294.

(\*) تيودور هرتزل (-1860 1904م) الكاتب الهنغاري أول من تبنى فكرة الدولة اليهودية ومن أوائل الذين أسسوا الحركة الصهيونية (المترجم).

## 108

من السهل أن نرى كيف يستطيع رجال الكلمة عن طريق الانتقادات المستمرة والسخرية المطردة أن يهزوا العقائد والولاءات القائمة. إلا أنه يصعب أن نتوقع الكيفية التي تتحول عبرها هذه الإدانة إلى عقيدة جديدة. ما يثير الانتباه هو أن رجل الكلمة النشيط الذي يتابع النظام القائم ويكشف ضعفه وظلمه<sup>(1)</sup> كثيراً ما يهيئ المسرح لمجموعة من الأفراد المستثيرين، بل لحركة شمولية همها الأول والأخير فرض الوحدة ونشر الولاء المطلق. وهكذا نرى أن انتشار التذمر من نظام ما، وزوال هيئته كثيراً ما يقود إلى نتائج غير متوقعة، ما أبدته مرحلة النهضة من احتقار للأوضاع القائمة فتح الباب أمام تطرف جديد جسده حركة الإصلاح البروتستانتي والحركة المناوئة لها. كما أن المثقفين الفرنسيين الذين هاجموا الكنيسة والتاج في القرن الثامن عشر، ونادوا بالتسامح وتحكيم المنطق أثاروا مداً عنيفاً من التطرف الثوري والقومي استمر مدة طويلة. وكل ما فعله ستالين ورفاقه بعد أن هاجموا الأديان والنشاط التجاري المحموم هو أنهم أدخلوا تطرفاً جديداً تجسّد في الشيوعية والاشتراكية والوطنية الستالينية والرغبة في السيطرة على العالم بأسره.

(1) Pascal, Pensees.

إننا عندما نهاجم عقيدة أو نزعة متطرفة لا نقضي على جذور التطرف، بل نمنع تسربه من نقطة مُعينة، الأمر الذي قد ينتج عنه تسربه من نقطة أخرى. وهكذا نرى أن رجل الكلمة المعارض بانتقاض الولاءات والعقائد القائمة يخلق في الجماهير، دون قصد، شوقاً إلى عقيدة جديدة. لا يستطيع معظم الناس تحمل ما في حياتهم من خواء وخيبة إلا إذا كان لديهم ولاء قوي، أو مجهود دائب يمكن أن ينغمسوا فيه كلية. هكذا يصبح رجل الكلمة المعارض، شاء أو لم يشأ، مبعثراً بعقيدة جديدة.

إن المثقف الحقيقي ليس بحاجة إلى الإيمان المطلق بقضية ما. بوسعنا أن يعدّ البحث عن الحقيقة في أهمية الحقيقة ذاتها، وأن يستمتع بصراع الأفكار، وما يثيره الجدل من حيوية. حتى عندما يطوّر هذا المثقف فلسفة ومذهباً، فإنه يفعل ذلك ليثبت ذكائه وقدرته دون أن يعدّ ما قام به برنامجاً يتطلب التنفيذ، أو عقيدة يجب الالتزام بها. صحيح أن غروره قد يقوده إلى الدفاع عن نظرياته بصلافة وعنفة إلا أنه، برغم ذلك، يحتكم إلى المنطق، لا إلى الإيمان الأعمى. إلا أن الجماهير المتعطشة إلى الإيمان، بقيادة المتطرفين، كثيراً ما تضي على هذه النظريات عصمة الكتب المقدسة وتجعل منها نواة دين جديد. لم يقل المسيح: إنه مسيحي، ولم يقل ماركس: إنه ماركسي.

تلخيصًا لما تقدم يمكن أن نقول: إن رجل الكلمة المعارض يهيئ التربة لقيام حركة جماهيرية، وذلك:  
أولاً: بانتقاص المذاهب والمؤسسات القائمة وزعزعة شرعيتها عند الناس.

ثانياً: بأن يوجد، بطريق غير مباشر، جوعاً إلى الإيمان في قلوب أولئك الذين لا يستطيعون العيش من غير هذا الإيمان، بحيث تلقى العقيدة الجديدة حين تجيء قبولاً حاراً من الجماهير المحبطة.

ثالثاً: بأن يصوغ العقيدة الجديدة وشعاراتها.

رابعاً: بأن يهاجم «الصفوة» التي لا تحتاج إلى عقيدة على نحو يفقد أفرادها القدرة على مقاومة التطرف الجديد حين يجيء. يصبح هؤلاء مقتنعين أنه لا جدوى من الموت في سبيل المبادئ التي يؤمنون بها ويستسلمون للنظام الجديد بلا مقاومة<sup>(1)</sup>.

هكذا يصبح المشهد عندما ينهي رجل الكلمة المعارض مهمته: (يفتقر أفضل الناس إلى المبادئ، بينما تسود الحماسة الجارفة أسوأ الناس. وعندها يقال: إن هناك شيئاً جديداً

---

(1) جاء في رسالة كتبها مصري في هولندي: «لأنود نحن الهولنديين أن نصبح شهداء، شأننا شأن معظم معاصرينا الذين لا يريدون الاستشهاد». انظر: Demaree Bess, «The Bitter Fate of Holland» Saturday Evening Post Feb, 1, 1941.

سينزل: لا بد أن عودة المسيح قد اقتربت) (1) أصبح المسرح،  
الآن، جاهزاً للمتطرفين.

## 109

إن الأشخاص المأساويين في تاريخ الحركات الجماهيرية  
هم، عادة، المثقفون الذين مهّدوا للحركة، والذين عاشوا ليروا  
سقوط النظام القديم على يد الجماهير.

إن الوهم السائد الذي يذهب إلى أن الحركات الجماهيرية  
تولد من عزم الجماهير على التخلص من الطغيان وشوقها إلى  
الحرية يعود إلى ضجيج الكلمات التي أطلقها المثقفون ضد  
النظام القائم. إلا أن الواقع يقول: إن الحركات الجماهيرية  
خلال صعودها تمنح، عادة حريات أقل من التي كانت موجودة  
في عهد النظام القديم. وكثيراً ما ينسب هذا إلى مكر الفئة  
المتسلطة التي خطفت الحركة في بدايتها، وحرمت الجماهير  
من فجر الحرية الذي يوشك أن يشرق. إلا أن الأشخاص  
الوحيديين الذين خدعوا هم - في الواقع - المثقفون. تحرك  
المثقفون ضد النظام القائم، يعيرون عليه عدم عقلانيته  
وعدم كفاءته، ويشككون في شرعيته ويدنون ظلمه، مطالبين

(1) William Butler Yeats, «The Second comine» Collected Poems (New  
York: Macmillan Company, 1933.

بالحرية، معترضين أن الجماهير التي تستجيب لنداءاتهم، وتصطف وراءهم تؤمن بالأهداف ذاتها. إلا أن الجماهير، في الحقيقة، لا تتوق إلى حرية التعبير وتحقيق الذات، بل إلى التحرر من العبء الثقيل الذي يخلقه وجود الفرد المستقل. إنها تريد الحرية (من ذلك القيد الثقيل: حرية الاختيار)<sup>(1)</sup> إنها تريد الخلاص من المسؤولية الثقيلة التي يواجهها الأفراد المحبطون، والتي تتطلب منهم العيش مع أنفسهم التي يكرهونها وتحمل المسؤولية عن أعمالهم. لا تريد الجماهير حرية الضمير، ولكنها تريد الإيمان، الإيمان الشامل الأعمى. والجماهير التي تطيح بالنظام لا تود إقامة مجتمع من أفراد أحرار مستقلين، بل بناء مجتمع يتميز بالتماثل ويجسد الوحدة التامة ويلغي الهويات الفردية.

لم تكن ثورة الجماهير منصبة على شرور النظام القديم، بل على ضعفه؛ لا على ظلمه، بل على فشله في تحويل الجماهير إلى كيان قويّ موحد. إن رجل الكلمة المعارض لا يقنع الناس بمساوئ النظام القديم بقدر ما يقنعهم بضعفه وعجزه، وما تفعله الحركة الجماهيرية يتمشى، عادة، مع رغبات الناس ولا يمكن القول: إن الحركة خدعتهم.

(1) Fedor Dostoyevsky, The Brothers Karamazof Book V, Chap, 5.

ينتظر المثقفين الذين ساعدوا على ولادة الحركة الجماهيرية مصيرٌ مرعبٌ، يظل هؤلاء المثقفون، مهما مجّدوا العمل الجماعي، فرديين في تصرفاتهم وإفكارهم، يؤمنون أن السعادة يمكن أن تكون فردية، كما يؤمنون بالرأي الفردي والمبادرة الفردية، إلا أنه بمجرد أن تبدأ الحركة عملها تقع السلطة في يد أولئك الذين لا يؤمنون بالفرد، ولا يقيمون له أي وزن. والسبب الذي يجعلهم مسيطرين على الموقف لا يكمن في استخفافهم بحقوق الفرد والقوة التي يستمدونها من هذا الاستخفاف، ولكن من كون موقفهم من الفرد يتمشى تماماً مع عواطف الجماهير الملتهية.

